مقدمة

التاريخ. لفظه ومعناه

لم ترد لفظة التاريخ، في القرآن الكريم ولا في حديث الرسول، ولم يُعرف أنها وردت في الشعر الجاهلي. وهناك خلاف في أصلها اللغوي، ومن ذلك أن السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ[1] ذكر أن هناك من قال إن الكلمة مشتقة من الإرخ بكسر الهمزة أو الأرخ بفتح الهمزة وتعني وليد البقرة الوحشية، وربما كان الارتباط بين الوليد ولفظ التاريخ قد أتى من أن الوليد قد وُلد أو هو قد دَخل الزمن أو هو قد نشأ أو ابتدأ الحياة. والتاريخ يهتم - من بين ما يهتم به - بالنشأة والميلاد والتطور عبر الزمن. على أن هناك من ينكر الصلة بين وليد بقر الوحش ولفظة التاريخ لبُعد ما بينهما ولصعوبة الربط بين كليهما ومن هؤلاء السخاوي نفسه في كتابه سالف الذكر.

وقيل أن لفظة «التاريخ» مشتقة من اللفظ الفارسي «ماه روز» الذي يعني حساب الشهور والأعوام، وهذا خطأ جلي.

واستنتج بعض المستشرقين أن لفظة التاريخ قد تكون عربية جنوبية اعتمادا على رواية تقول إن أول من أرخ التاريخ هو يعلى بن أمية حيث كان باليمن فكتب إلى عُمر كتاباً من اليمن مؤرخا فاستحسنه عمر وقال «هذا حسن فأرخوا»[2].

أما المُستشرق جِب فيرى أنَّها مُشتقة من الكلمة السامية التي تعني القمر أو الشهر وهي في اللغة العبرية (يرخ).

ويبدو أن هذا المنحى الأخير هو الصحيح. وهذا يؤكد ما سنذكره في فصول قادمة من أن معرفة اللغات الأجنبية المتصلة بالبحث من ألزم الأمور للباحث، فلولا أن جب يعلم العبرية أو شيئا منها ما خلص إلى هذا الاستنتاج.

هذا عن الدلالة اللغوية للفظ، أما عن مضمونه الاصطلاحي فقد مُر بعدة تطورات.

ومن المراجع الطريفة التي تناولت هذا الموضوع كتاب جلال الدين السيوطي الموسوم باسم:

---

(١) عاش السخاوي في الفترة من ٨٣١ إلى ٩٠٢ هـ/ ١٤٢٧ - ١٤٩٧م

(٢) الشرقاوي، عفت محمد: أدب التاريخ عند العرب. بيروت، دار العودة، د.ت. ص ٢١٢.

الشماريخ في علم التاريخ، وقد توفي السيوطي سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥م) ومعنى هذا أن قيمته تاريخية وأنه لم يقدِّم لنا المضمون الشامل لعلم التاريخ كما نعلمه اليوم.

والتاريخ عند السيوطي هو ربط الأحداث بالزمن أو بتعبير آخر هو وضع علامات على مسيرة الزمن لتحديد وقت وقوع الأحداث، تماما كما توضع العلامات على الطريق الطويل لتحديد مكان القرى والمدن. فالعلامات على الطريق تحدد المكان والعلامات في مسيرة الزمان لتحديد وقت أو زمن أو حين أو متى تقع الأحداث أو الوقائع.

ويذكر السيوطي أن الناس في بداية الأمر أرَّخوا بالأحداث الهامة، ويُعَدِّد لنا أمثلة على ذلك لا ينكرها العقل بالمرة، فمن الطبيعي أن يؤرخ آدم من يوم هبوطه من الجنة، فيقول إن ذلك حدث بعد هبوطي بعشرة أيام أو عشرين أو طلعت الشمس بعد هبوطي عشر مرات أو عشرين... وهكذا. ورغم أننا لا نملك وثائق أو أدلة على أنه قال هذا أو فعل هذا إلاَّ أن زعمنا ذلك يدخل في حيِّز الاستنتاج المعقول الذى لا يتنافي مع الطبيعة البشرية. ومثل هذا الاستنتاج لا ينكره التفكير التاريخي أو المنهج التاريخي بل هو ضروري في كثير من الأحوال.

ومن الطبيعي بعد الطوفان - طوفان نوح - أن ينكر الناجون أن حدثا بعينه وقع قبل الطوفان أو بعده، فكأنهم أرخوا بالطوفان، وكأنما الطوفان علامة على مسيرة الزمن.

وهكذا مضى الناس يؤرخون بالأحداث الهامة التي يذكر السيوطي منها نار إبراهيم ومبعث يوسف ومبعث موسى ومولد عيسى وهجرة محمد المصطفي عليه السلام.

ورغم ضبط التواريخ الهجرية والميلادية في أيامنا هذه فإننا في كثير من الأحيان نؤرخ بالأحداث الهامة فنقول: كان هذا قبل الحرب العالمية الأولى أو الثانية أو بعد هذه أو تلك.. ونقول: قبل الاستقلال أو بعده.. وهكذا.

وإذا كان التاريخ كما يُقال هو علم دراسة جهود الإنسان في الماضي إلا أننا نستطيع أن نفهم كثيرا من وقائع التاريخ بتأمُّل الحاضر، فبعض العجائز لازلن يؤرخن بما وقع لهن شخصيا من أحداث هامة، فتقول: إن ذلك قد حدث سنة وفاة ابني فلان أو بعد وفاته بعام أو قبل ذلك بعامين.. وهكذا.

ويذكر السيوطي أن عمر بن الخطاب قد اعتمد التاريخ الهجرى سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة وإن كان يذكر روايات أخرى.(١).

---

(١) راجع هذه الروايات في كتاب *الشماريخ في علم التاريخ* للحافظ جلال الدين السيوطي.

والتاريخ بمعنى قيد الحوادث مرتبطة بالزمن يهدف فيما يرى السيوطي إلى «معرفة الأجيال وحلولها وانقضاء الأجل ووفيات الشيوخ ومواليدهم والرواة عنهم فيعرف بذلك كذب الكاذبين وصدق الصادقين».

على أن علم التاريخ عند مؤرخي المسلمين عامة كان «معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصيح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن.. وهذا العلم عُمر آخر للناظرين...»

وارتبط علم التاريخ عند المسلمين كما سنفصّل فيما بعد بحديث الرسول عليه السلام مما جعلهم يحرصون على تحقيق الرواية وتمحيصها.

ولا تبتعد نظرتنا للتاريخ اليوم كثيرا عن نظرة السلف من المؤرخين فالتاريخ عند أكثر الباحثين يتناول كل ما يتعلق بجهود الانسان في الماضي سواء أكانت هذه الجهود وتلك النشاطات لحكام أو زعماء أم لأفراد عاديين، وسواء أكانت هذه النشاطات حروبا أم علاقات سلمية أم نشاطات في مجالات الفن والاقتصاد والتعليم والدين وما إلى ذلك.

والماضي في نظر المؤرخ «لا يتألف من سلسلة للأحداث وإنما هو نظرية للمعرفة تلقي ضوءاً على حقيقة هذه الأحداث»[1].

وهكذا ينتهي واحد من كبار الباحثين في فلسفة التاريخ وهو كولنجوود إلى أن علم التاريخ هو نوع من أنواع البحث العلمي يهدف للكشف عن جهود الإنسان في الماضي معتمدين في ذلك على تفسير الوثائق.

ومادامت الوثائق هي وسيلة المؤرخ الأساسية لكتابة التاريخ فإن المؤرخ الذي يحترم نفسه كثيرا ما يُحْجم عن الكتابة في موضوع لم تتكشّف وثائقه أو جانب كبير منها على الأقل. لذلك فإن أقسام التاريخ في الجامعات الكبرى غالبا ما لا تقبل تسجيل رسائل للماجستير والدكتوراه عن موضوعات معاصرة. وبالنسبة للباحث في مجال التاريخ الحديث يستحسن أن يتناول موضوعا مضى عليه ٣٠ أو ٤٠ سنة أو ٥٠ سنة.

---

(١) كولنجوود، ر.ج.: فكرة التاريخ. ترجمة محمد بكير خليل ومحمد عبد الوهاب خلاف. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨. ص ٣٣.

ومن الناحية النظرية نلاحظ أن التاريخ يشمل الماضي كله، لكن كيف يتناول الباحث أو المؤرخ موضوعا لا يملك أدوات بحثه الأساسية وهي الوثائق؟ وكيف يتناول مسألة أو موضوعا مازالت الحقيقة لم تتضح فيه تماما أو مازال مرتبطا بمصالح أناس على قيد الحياة يهمهم على نحو أو آخر حجْب الحقيقة.؟

ويزيد من صعوبة مهمة المؤرخ أنه يتناول الإنسان بدوافعه المختلفة وتركيبه المعقد، أما ما يتناوله المؤرخ من موضوعات أخرى كظروف البيئة الجغرافية فالغرض منها تفسير جهود الإنسان وتأثير هذه الظروف عليه أو تأثيره هو - الإنسان - عليها. فلو أن حدثاً جغرافيا كبركان أو هزة أرضية حدث في مكان ناء لا بشر فيه ولم يكتشف حدوثه عالم أو إنسان في مكان آخر، فإن هذا الحدث الطبيعي لا يدخل منطقيا في مجال التاريخ بمعناه الذى ندرسه. والتطورات التي ألمّت بالأرض أو بالكون قبل وجود الإنسان لا تدخل أيضا ضمن التاريخ الذى نعنيه كفرع من الدراسات الإنسانية، وإنما قد تتناولها علوم أخرى كالجيولوجيا أو التاريخ الطبيعي وكلاهما من فروع العلوم البحتة.

هذا هو علم التاريخ بدون دخول في متاهات فلسفية أو تعريفات لا يمكن باستخدام أدوات التاريخ التي نعرفها اليوم أن نحققها أو نحقق بعضاً منها.

ومن هنا نترك للطالب أو القارىء أن يحكم على ما ذكره أحد الباحثين في مجال التاريخ والذي نقتطف منه الفقرة التالية:

(التاريخ يقترن في الأذهان بالماضي وحده، وهذا مفهوم قديم لم يعد يأخذ به أحد من أهل التاريخ لأن التاريخ هو الحركة: حركة الكون وحركة الأرض وحركة الأحياء والناس على سطح الأرض وما تستتبعه هذه الحركة الدائمة من تَغيُّر دائم. وحيث إنَّ الحركة تغير مستمر منذ أن بدأ الله سبحانه الخلق إلى أن يطوي الأرض وما عليها، فإن التاريخ أيضا متّصل منذ الأزل إلى الأبد، وهو يشمل الماضي والحاضر والمستقبل جميعا، فكله تاريخ وكله ميدان عمل المؤرخ وهو نهر الحياة المتدفق الجاري المتجدد دائما بما تأتي منابعه وما تأتي به روافده»[1].

(١) مؤنس، حسين: الحضارة. الكويت، المجلس الوطني للثقافة (سلسلة عالم المعرفة - ١) ص ١٢١.

قراءات مختارة

١ - مادة «تاريخ» في دائرة المعارف الإسلامية.

٢ - السيوطي، جلال الدين: الشماريخ في علم التاريخ. الكويت الدار السلفية، ١٣٩٩هـ.

٣ - كولنجوود، ر.ج: فكرة التاريخ. ترجمة محمد بكير خليل ومحمد عبد الوهاب خلاف. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٦٨ م - ١٣٨٨هـ.)